صحيح أن العقيدة لا تعطي «برنامجاً» للنضال، لكنها تمنح التأمل الواعي، بعكسها مرارة الواقع عبر حسية معاشة، وبذلك تنجح في تكوين طعمها الحار كـ«الدم المهراق»، تنجح كونها تصبح غذاء روحياً للذات المغتربة أرضها، للسكينة القلقة، والارتضاء للسكن حتى مع السكينة ــ جريحة تنشر عرسها القادم مع رقص البيادر.

ــ ٢ ــ

«ماذا أقول للكنعانيات في مدن المنافي؟». هكذا تساءل الشاعر في أول قصيدة من مجموعته الشعرية الجديدة: «جفرا». ترى هل تمكن من قول ما أراد، أم اكتفى بالسؤال؟ لقد أسهب عزالدين المناصرة في غنائه للكنعانيات، وتحديداً لـ«جفرا» التي أسطرتها القصائد وطنا بمدنه «الحبيسة»، وبتشابكات رموز أرضه الصارخة، «كصهيل الماء». المترددة صدى يهتف بالشاعر تحذيراً من تلاشي التمايز بين الأشجار وحفيفها، مما يضطر للاجابة:

يا شجر المنفى
انني لا أنوي الاقامة

وجفرا = الوطن + المرأة = القصيدة (الهمّ). هذه المعادلة لها وقعها وتميزها بالنفس الشعبي الحار الذي تملكته، وهنا أؤكد قضية التمايز؛ كونها لا تأتي نسخاً فلسطينياً لإلزا أراغون الفرنسية، فالموضوع المتناول هنا له من علائمه المتشعبة بروزاً يجسم الاجابة التي تدعم رأينا. فجفرا هي: (الأم، الحبيبة، المغنية، الراقصة، بائعة البرتقال، المسافرة، طالبة الجامعة، بنات الخليل.. إلخ) هي التحدي:

ليكن في علمك أيها الجندي
لن تستطيع اختطاف ولدي للتجنيد الاجباري
حتى لو بلغ السن القانونية

هذا التحدي المكرر بقوة، بصور مترادفة في «حجر» تيهاً لعكس الأيديولوجيا، التراجيديا الحية في «نساء لا يبكين، ولا يسترحمن القتلة» ــ ويستمر المناصرة في رسم نموذج المرأة الفلسطينية بكل ما تعانيه ــ ما تعيه وما تمارسه ضمن تكوينها العاطفي والنفسي، فهن:

«يغزلن قمصاناً للأحبة الغائبين»

التواصل هنا يصبح نوعاً من دواء وسلاح للمجابهة والإحساس بالوجود المستقل عبر الذات التي حددت ارتباطها:

لي حبيب وحيد، ألا.. فاتركوني له،
هو الآن يركب مهرته ــ سرجها ذهب
وحوافرها فضة ــ تقرع الآن ليل الجليل
حبيبي مسجى أمامي
صوته صارخ وله طلعة مثل بدر التمام.

ترى، هل استنفدت جفرا حضورها الممتزج بحلم اللقاء:
«أغداً سأرى أمي، هو السؤال المؤجل أبداً»

عزالدين المناصرة يحلم بالثورة في حملها بعد البدر التاسع، ويصر على الحضور الموازي الملازم للرؤية الحسية: «وأقول: أراها، حتماً سأراها، لو في الحلم أراها». والمناصرة لا يغمض عينيه عن تناقضات الزمن الكائن فيه، فهو، إذ يطرح نموذجاً حياً وفاعلاً لامرأة مناضلة توحدت عندها قضية الوفاء للثورة بالوفاء للحبيب لا ينسى ذكر النقيض، ويشير بأسلوب يمنحه موقفاً أخلاقياً ساخراً، كما جاء في مقاطع: «مزاج السيد»، «يحدث دائماً»، «سبحان التدفئة»، «استقبال القائد»، «مبادرات عليه السلام» و«العصفور بن الطائر».. وغيرها.